مفهوم الصدق والمبالغة : ـ

ان مفهوم الصدق ودراسة ظاهرة المبالغة في القول من المسائل المهمة التي شغلت بال النقاد قديما وحديثا وسنجد في اقوال الرسول (ص) والصحابة من بعده مايدل على ان بداية كثير من الاراء النقدية قد وجدت في هذه الفترة بشكل او بأخر وان كانت هذه البدايات جزء من التوجيه الاخلاقي العام وليست مذهبا ادبيا خاصا .

لقد نجح الشعراء كثيرا في اخيلتهم وبالغوا في اماديحهم واهاجيهم واختلفت آراء النقاد في هذه المبالغات وكانت تعليقاتهم في العصر الجاهلي تعليقات قائمة على الانطباع السريع او التذوق الاني فيما يتعلق بنفورهم من المبالغة المفرطة او اعجابهم بها اذا ادت غرضها في الفخر او الهجاء او المديح . ونلمح رأي الرسول (ص) في المبالغة في خبر له مع الشاعر النابغة الجعدي الذي طلب منه الرسول (ص) ان ينشده شعرا فأنشده حتى اذا بلغ قوله : ـ

علونا السماء عفة وتكرما
وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وانكر النبي (ص) هذا القول وقال : الى اين يا ابا ليلى !!! فقال : الى الجنة يارسول الله فيقول الرسول (ص) : الى الجنة ان شاء الله ....

وواضح ان انكار الرسول (ص) قول الشاعر منصب على مبالغته وافراطه في فخره حيث ادعى ان خبر عفة قومه وكرمهم قد بلغا السماء وتجاوزاها وانهم يطلبون عزا ابعد من هذا يطاولون به السماء او مافوقها . فلما انكر الرسول (ص) مبالغته اجاب الشاعر بذكاء حاد اجابة تنسجم مع توجيهات الرسول (ص) للشعراء وهي توظيفهم لتطبيق مبادىء الاسلام ، وتوخيها في سلوكهم واشعارهم . فقومه حقا يطلبون فخرا وسؤددا يعلون بهما السماء وليس هناك الا الجنة التي وعد بها المتقون والمؤمنون والشاعر يفخر بأن قومه منهم . وهنا يمكن ان تنضوي مبالغة الشاعر ضمن المبالغة المقبولة المحتملة الوقوع ؛ هذا في الفخر ونجد في المديح موقفا مماثلا للرسول (ص) في رواية قيل ان الرسول (ص) سمع رجلا يثني على رجل ويكثر من مديحه فقال (ص) : اهلكتم الرجل او قطعتم ظهر الرجل . والله تعالى يقول (فلا تزكوا انفسكم فالاسلام دين القصد)(٦٧) .

---

(٦٧) الاسلام والشعر ، ص ٨٨

وقبول المبالغة في الاشعار او رفضها متعلقان بمفهوم الصدق فهل تقبل مبالغة الشاعر في تصويره معنى من المعاني اذا اجاد واحسن في التصوير ام انه مطالب بصدق الموقف ازاء موصوفه وما اتصف به من صفات . ومن ثم فأن مبالغاته في الاوصاف مرفوضة مادامت بعيدة الصلة عن موصوفها كما يعرفه الواقع الحقيقي له .

وسنجد النقاد فيما بعد يقسمون الصدق الى انواع وفق هذين الموقفين . فهناك صدق الشاعر في التعبير عن مشاعره وتصوير واقع حاله او حال المعنى الذي يريد وصفه وهناك صدق الشاعر الفني وهو نجاحه في تصوير معنى من المعاني سواء وجد في الواقع ام لم يوجد . كأن ينجح في مدح واصفا كل قيم الخير والجمال والحق التي يفتقدها في الواقع ولكن قدرة الشاعر الفنية تجعله موفقا في تخيل وجود هذه الصورة المثلى للمدوح .

وسنجد ان الموقف الاول بشأن مفهوم الصدق هو السائد في هذه الفترة من خلال الروايات الكثيرة التي اعجب بها الرسول (ص) او المسلمون ببعض الاشعار لانها صادرة عن صدق في تصوير تجربة انسانية يقرها الواقع ويقبلها العقل مهما اختلف الزمان والمكان .

لقد مر بنا ان نظرة الاسلام والرسول (ص) للشعر والشعراء قد اقترنت بالدعوة الى الالتزام الخلقي والديني واصلاح ذات البين وحفظ الانساب فلا عجب ان نجد في هذه الفترة بدايات المذهب الاخلاقي في النقد والدعوة الى الصدق والالتزام الخلقي في اقبال الرسول (ص) وآراء الصحابة الذين اثرت عنهم اقوال في هذه المسألة .

لقد ابدى الرسول (ص) اعجابه بأبيات من الشعر الجاهلي انشدت امامه وكانت معانيها في الحكمة موافقة لما يدعو اليه الاسلام من الخلق القويم والمثل العليا . فقد علق (ص) على قول عدي بن زيد :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن مقتد

بأنه كلمة نبي القيت على لسان شاعر(٦٨) ومعلوم ان كلام النبوة صادق فكأن ماصوره الشاعر هنا من كلام النبوة لصدقه وهو صادق قائم على تصوير حكمة انسانية

---

(٦٨) الايجاز والاعجاز (ضمن خمس رسائل) ص ٣٨

اثبتتها التجارب فكأن ما قاله الشاعر هو الحقيقة بعينها او هو الحق الذي يجيء به الانبياء . وقد قال (ص) بعد ان سمع ابياتاً من شعر سويد بن عامر المصطلقي (لو ادرك هذا الاسلام لاسلم)(٦٩) . وكان (ص) يعجب بشعر عنترة لما فيه من معان جميلة دالة على الشجاعة ومكارم الاخلاق فيقول : (ماوصف لي اعرابي قط فأحببت ان اراه الا عنترة)(٧٠) وحين سمع قول طرفة :

ستبدى لك الايام ماكنت جاهلاً
ويأتيك بالاخبار من لم تزود

قال : (هذا من كلام النبوة)(٧١)

ووصف (ص) قول لبيد :

الاكل شيء ماخلا الله باطل
وكل نعيم لامحالة زائل

بأنه اصدق كلمة قالها شاعر(٧٢)

وقال (ص) حين سمع شعر زهير بن جناب مخاطباً السيدة عائشة :

يجزيك او يثني عليك فأن من
اثنى عليك بما فعلت كمن جزى

صدق ياعائشة (لايشكر الله من لايشكر الناس)(٧٣)

ان صدق الشاعر في تصوير تجربة انسانية هو سبب اعجاب كثير من الصحابة باشعار بعض الشعراء . فالخليفة عمر بن الخطاب يتعجب من قول زهير بن ابي سلمى :

وان الحق مقطعه ثلاث
يمين او نفار او جلاء

---

(٦٩) الفائق ٣ / ٥٢ طبعة عبد السلام هارون عن الاسلام والشعر ٧٢

(٧٠) الاغاني ٩ / ٢٤٣

(٧١) الاسلام والشعر ٧٢

(٧٢) صحيح البخاري ، فضائل اصحاب النبي ص ١٧٥ ، مسند الامام احمد ٢ / ٢٠٨ / ٢٤٨ صبح الاعشى ١ / ٢٩٨ ، الفاضل ٩

(٧٣) اخبار ابي القاسم الزجاجي الورقة ٨٤

ويتعجب من صحة تقسيمه الحق ويقول : لو ادركت زهيراً لوليته القضاء(٧٤) وما ذلك الا لصدور زهير في هذا التقسيم عن تجربة وخبرة جعلت قوله موافقاً للواقع الذي خبره الخليفة عمر نفسه في القضاء وشروط توليه .

ومثل هذا ماذكر من تعليق الخليفة الثالث عثمان بن عفان على قول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة

وان خالها تخفى على الناس تعلم

حيث قال احسن زهير وصدق . لو ان رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس وقال النبي (ص) : لاتعمل عملاً يكره ان يتحدث فيه(٧٥) . فالخليفة عثمان هنا يعجب بحكمة زهير ويعده صادقاً لانه وجه معنى البيت توجيهاً اسلامياً ينسجم مع دعوة الرسول (ص) بالا يعمل الانسان عملاً يستهجنه الله والناس او ربما وجهه وجهة دينية اكثر من فهمه له . ان الله يعلم السر واخفى . وان الانسان وان خفيت اعماله عن الناس فهناك من يراها ويحصيها وهو الله سبحانه وتعالى وبذا يكون مفهوم الصدق عند الخليفة عثمان بسبب ارتباط البيت بفكرة موافقة لمبادىء الاسلام .

ونقرأ في رواية عن شعر ابي محجن ان الامام علياً يعجب ببعض ابياته لاسباب منها ... قوله الحق . فقد ذكر ان الخليفة عمر كان يفضل ابياتاً لابي محجن منها : ـ

لاتسألي الناس عن مالي وكثرته

وسائلي القوم عن ديني وعن خلقي

واهجر الفعل ذا حوب ومنقصة

واترك القول يدنيني من الرهق

ويتهم رأيه فيه . فلا يذكر ذلك الى ان سأل عليا كرم الله وجهه عن اشعر الناس ؟ فقال :

ـ الذي احسن الوصف . واحكم الرصف . وقال الحق .

---

(٧٤) الصناعتين ٣٤٢ .

(٧٥) الاغاني ٩ / ٣١٢

قال من هو ؟ : قال ابو محجن في قوله (لاتسألي ..)(٧٦) ومع ما تحمله هذه الرواية في اولها من سرعة في الحكم تذكر بأحكام الشعراء في عصر ما قبل الاسلام حين يسألون عن اشعر الناس ، الا ان نية السؤال والجواب كانت مقترنة بأبيات معينة يمكن فهم اسباب اعجاب الخليفتين بها وهي فخر الشاعر بألتزامه بدينه وخلقه مع التزامه بصفات فنية جيدة من حيث المبنى تتمثل في احكام الرصف واجادة الوصف والثالثة بالخلق الجيد المتمثل بصدق الشاعر في موافقته ما يقوله للحق والصواب .

الصدق ودوافع القول

لقد تطورت فكرة الاعجاب بشعر الشاعر لصدقه وظهرت بشكل بين في اقوال الخليفة عمر بن الخطاب واحكامه التي يفهم منها موقف نقدي ازاء هذه المسألة فصارت آراء الخليفة عمر واحكامه شواهد يذكرها النقاد اذا ذكر الصدق او ظاهرة التكسب ودوافع قول المديح .

فزهير لا يقول الا بما يعرف . ولا يمدح الرجل الا بما فيه(٧٧) هكذا اثنى عليه الخليفة عمر وقوله هذا يمثل بداية مهمة في النظرة الى المديح وعلاقته بالتكسب ، وصدور الشاعر في اشعاره عن صدق وقناعة في الثناء فمديح زهير قائم على صدق موقفه واحساسه بالاعجاب الحقيقي ازاء موقف ممدوحه ودوره السلمي في ايقاف حرب دامت اعواماً طويلة سجلها زهير في اشعاره وخلد موقف هرم بن سنان الانساني فأشعاره اذن صادرة عن عاطفة صادقة وليست طلباً للكسب وطمعاً في الجآة او المال فاذا قيل ان هرماً كان يجزل العطاء لزهير فأن الخليفة عمر لا يرى في هذا العطاء حطاً من قيمة شعر زهير لان الآصل يكمن في طبيعة الدافع الصادق الذي صدر عنه زهير في تمجيده لدور هرم بن سنان . لقد ذكروا ان الخليفة عمر قال لابن زهير :

ـ مافعلت الحلل التي كساها هرم اباك .

قال ـ ابلاها الدهر .

قال ـ لكن الحلل التي كساها ابوك هرماً لم يبلها الدهر(٧٨)

---

(٧٦) ديوان ابي محجن ١٥

(٧٧) الاغاني ١٠ / ٢٩٠ بتصرف

(٧٨) الاغاني ١٠ / ٣٧٥ ، العمدة ١ / ٢٩٨

وقال يوماً لبعض ولد هرم :

ـ انشدني بعض مدح زهير اباك فأنشده ، فقال عمر :

قد ذهب ما اعطيتموه وبقى ما اعطاكم . وفي هذه الاقوال بيان لرأي الخليفة عمر بشعر المديح وعلاقته بالصدق الواقعي الاخلاقي فشعر زهير ينضوي تحت ظلال الشعر الخير الطيب لانه صادق في التعبير عن موقف هرم في وساطته لايقاف حربٍ وطأت بضراوتها القبائل المتناحرة ولم يغير العطاء الذي ناله زهير بن هرم من مقدار اعجاب الخليفة عمر بأشعاره فالمسألة ليست مقايضة الشعر بالمال لان كفة الشعر هي الراجحة ، والباقية الخالدة والمال هو الفاني ، وانما المديح الجيد في رأي الخليفة عمر هو الذي يصدر عن احساس الشاعر بدافع القول الصادق ازاء شخصية معينة لارغبة في العطاء او التكريم و (معنى هذا ان عنصر الصدق من اصول النقد والحكم عند الخليفة عمر الذي كان يرى ان الشعر وسيلة من وسائل التهذيب الخلقي والسمو النفسي ولهذا لايجوز ان يقوم على الكذب والهوى المتملق والا كان ضرره اكثر من نفعه مهما علت درجته من البلاغة وهنا يبدو تأثر عمر والتزامه برأي الرسول (ص) القائل بأن احسن الشعر ما وافق الحق وما لم يوافق الحق فلا خير فيه .(٧٩) .

واذا كان الخليفة عمر قد نظر الى صدق مديح زهير نظرة تقدير لانه كان لايمدح الرجل الا بما فيه ، ولان اشعاره كانت بدافع الرغبة الصادقة في تمجيد شخصية هرم ممدوحه فأن شاعراً اخر هو الحطيئة ينظر الى مديحة نظرة اخرى فيها شيء من النظر الى القول الصادقة الا انها وردت على لسانه من وجهة نظر اخلاقية اخرى ، فقد ذكر انه كان اذ اسئل عن اشعر الناس يدعى بأنه هو اشعرهم ويعلل ذلك برغبته الصادقة في الحصول على العطاء وتجويد اشعاره بسببها فقد ذكر ان عبد الرحمن بن ابي بكر حدث بأنه رأى الحطيئة فسأله : اي الناس اشعر فأخرج الحطيئة لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال : هذا اذا طمع(٨٠) وكأن رغبة الحطيئة في العطاء تخلق في نفسه دافعاً قوياً على قول الشعر وان رغبته هذه جعلته يجود اشعاره فينال بها رضا ممدوحيه وقد اثر عن الامام على قول ـ مع ايجازه ـ يدلنا على نظر دقيق واع الى دوافع القول لدى الشعراء وعلاقتها بالاجادة والابداع دون ان

---

(٧٩) في النقد الادبي / عتيق ص ٧٧

(٨٠) الشعر والشعراء ١ / ٢٨٣

يقتصر على المديح او التكسب . فقد ذكر ان رجال جيشه تسامروا ذات ليلة من ليالي رمضان على عادة العرب والمسلمين فكان موضوع تلك الليلة الشعر وافضيلته وحدث خلاف بينهم في تقديم اشهر شعراء العرب فلما سئل الامام علي عن رأيه قال : ـ

(كل شعرائكم محسن **ولو** جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا ايهم اسبق الى ذلك وكلهم قد اصاب الذي اراد واحسن فيه . وان يكن احد(فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فأنه كان اصحهم بادرة واجودهم نادرة)(٨١) .

واذا كانت العبارة الاولى تحمل نفس القائد المحنك الذي يريد ترضية جميع الاطراف(٨٢) المتناقشة الا ان فيها روحاً اسلامية خالصة تدعو الى التريث في الحكم وعدم غبن اي شاعر اينما كان . وتجنب السرعة في الاحكام . واللجوء الى العدل والانصاف كما ان عبارة (كل شعرائكم محسن) قد تحمل نظرة فاحصة للشعر اكثر من كونها عبارة ترضية فكل الشعراء الذين رشحوا في المفاضلة له جانب من القول قد اجاد فيه وكل منهم لابد ان يكون قد عرف بغرض من الاغراض او معنى من المعاني فأحسن فيه واستحق ترشيح جماعته له في هذه المفاضلة وهذا حكم لا يضيع اجادة اي شاعر ولا يغبن احسان مجيد منهم . ونجد في اجابة الحطيئة في احدى الروايات التي ذكرت انه سئل قبيل وفاته عن اشعر الشعراء . نجد في اجاباته مايقرب من عبارة الامام على السابقة حيث اختار ابياتاً مفردة لبعض الشعراء واعلن امام الحاضرين ان قائليها هم شعراء حقاً او ان واحدهم يمكن ان يكون اشعر العرب . واذا تأملنا تلك الشواهد وجدناها مصداقاً لقول الامام علي (كل شعرائكم محسن (فالشماخ شاعر في اجادته تصوير قوسه الجيدة . وامرؤ القيس اشعر العرب في وصفه لطول الليل وثقله . وضابىء البرجمي اشعر الشعراء في تصويره للموت وهكذا يريد الحطيئة ان يقنع الحاضرين ان لكل شاعر مجيد معنى او غرضاً احسن فيه واجاد فاستحق ان يفضل على غيره وفي هذا دقة في الحكم وخروج على الاحكام الانطباعية العامة التي كانت سائدة قبل الاسلام . وسنجد صدى هذا الرأي على السنة كثير من علماء الشعر واللغة فيما بعد فيونس بن حبيب يجيب محمد بن

---

(٨١) الاغاني ١٦ / ٢٩٧

(٨٢) مقالات في المقد الادبي ٤٥

سلام صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء عن سؤاله عن اشعر الناس في نظره فيجيبه (لا اومىء الى رجل بعينه ولكني اقول امرؤ القيس اذا غضب والنابغة اذا وهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا طرب)(٨٣)

واذا انتهينا من تحليل مقولة (كل شعرائكم محسن) فلابد من الانتقال الى الفقرة التالية لها وهي (وان يكن احدهم فضلهم ..) فالموقف يقتضي فض النقاش والاستئناس برأي الامام علي في اشعر الشعراء فأعلن تفضيله لشعر امرىء القيس ولم يكن هذا التفضيل من قبيل الاحكام الانطباعية العامة التي وجدناها من قبل وانما هو حكم قائم على التحليل والنظرة الثاقبة الى الشعر ودوافعه . فأمرؤ القيس فاق الشعراء باجادته وابداعه وان احد اسباب هذا الابداع كونه ملكاً او ابن ملك ليس بحاجة الى عطاء ممدوح او تقريب شيخ قبيلة او فارس . والشعر عنده تلبية لحاجة نفسية في التعبير عما تجول به نفسه فهو لم يقل رغبة ولا رهبة وكانت لديه الموهبة الشعرية التي جعلته يسبق غيره الى ابتداع صورة واخيلة كثيرة فطن اليها النقاد فيما بعد حتى علق بعض علماء الشعر على قول الامام علي في سبب تفضيل شعر امرىء القيس (اصحهم بادرة واجودهم نادرة) بقوله ان امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لانه قال مالم يقولوه . ولكنه سبق الى اشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها(٨٤) .

وهكذا نجد ان هذه الروايات المأثورة عن فترة الخلفاء الراشدين تمثل بدايات طيبة للاراء النقدية التي ستتضح فيما بعد في مؤلفات النقاد وآرائهم وقد دارت الروايات المنسوبة الى الخليفة الثاني والرابع حول مفهوم الصدق في الاشعار وان كانت مقولة الخليفة عمر تدور في اطار الصدق الواقعي لان اعجابه بشعر زهير متأت من نظرته الى صدقه في اوصافه واماديحه ومطابقتها لانه كان لايمدح الرجل الا بما فيه فيكون مفهوم الصدق هنا اخلاقياً . ومقاييسه نابعة من صدق الشاعر في اوصافه . وصدق دوافع القول لديه بينما يمثل رأي الامام علي في امرىء القيس مفهوم الصدق الفني ودوافع القول الصادقة لان امرأ القيس كان مدفوعاً بدوافع ذاتية بحتة دون الدوافع الخارجية المعروفة من خوف او رهبة او رغبة فاجادته للمعاني والاوصاف ينطبق عليها مفهوم الصدق الفني وسنجد ان هاتين النظرتين المتعلقتين بالصدق الاخلاقي او الصدق الفني تشقان طريقيهما في الموروث النقدي لدى

---

(٨٣) الاغاني ٩ / ١٠٤ ـ ١٠٥

(٨٤) العمدة ١ / ٧٧